تعميد العالم، الجزء الأول

المتروبوليت سابا (اسبر)

بقيت الكنيسة المسيحية تعيّد عيداً واحداً، لميلاد المسيح ولمعموديته سويّاً، حتّى القرن الرابع. فكان العيد مناسبة واحدة للاحتفال بالحدثين الإلهيين. لكن بعد اعتناق الامبراطور قسطنطين الكبير للمسيحيّة، ودخول الرعايا فيها، بأعداد غفيرة، بدءاً من القرن الرابع الميلادي، بدأ الخلط بين متطلّبات الدين الجديد والعادات والاحتفالات الوثنية المترسبة في الوجدان، ولو تنافت مع الإيمان الجديد. ما اضطر الكنيسة إلى مواجهة التحدّي الجديد، والتغلب عليه بمسحنته.

كان عيد الإله الشمس عيداً عظيماً في الامبراطورية الرومانية، في الشرق بخاصّة. والأعياد، دائماً، وللأسف، مناسبات، عند الكثيرين، للتفلّت الأخلاقي. ولمّا بقي المؤمنون الجدد يحتفلون بهذا العيد إلى جانب الأعياد المسيحيّة، ارتأت الكنيسة، عمود الحقّ، أن تفصل الميلاد عن الظهور الإلهي، وتعيّن له عيداً خاصّاً به. فجعلت لكلٍّ من حدثَي ميلاد الربّ واعتماده عيداً مستقلاً. بقي التعييد للمعموديّة في السادس من كانون الثاني، ونُقل عيد الميلاد إلى الخامس والعشرين من كانون الأول، وهو تاريخ عيد الشمس.

لذلك يلحظ المواظبون على الصلوات والخدم الليتورجيّة تطابقاً شبه كامل في بنية خدمَتَي العيدين.

استخدمت طروبارية (نشيد) عيد الميلاد لقب "شمس العدل" للمسيح. وجاء فيها: "لأنّ الساجدين للكواكب، به (نور معرفة المسيح) تعلّموا من الكوكب السجود لك يا شمس العدل". وهكذا، ومع الوقت تَمَسحَن العيد الوثني، وصار المسيحيّون يعيّدون كما يليق بإيمانهم.

هذا ما ندعوه مسحنة العالم أو تعميده. ويقوم على اعتماد ممارسة ما موجودة، وإعطائها مضموناً مسيحيّاً. لنأخذ المعمودية مثالاً ثانياً. كانت المياه في الحضارة

القديمة مصدراً للخوف والخطر. لم يملك الإنسان القديم القدرة على مواجهة الفيضانات والسيول والأمطار الغزيرة وما تخلّفه، ناهيك عن البحار والأنهار. فاعتُبرت المياه مصدراً للفوضى غير القابلة للانضباط، وأُطلق عليها، في العهد القديم، اسم "الشواش". وكان إله الماء إلهاً مخيفاً. إلى ذلك اعتُبر الماء دوماً علامةً للتطهير والنقاوة، ودليلاً حسيّاً على النقاوة الداخليّة، التي يستدير نحوها الإنسان التائب. ولذلك استُخدِم في معظم الديانات رمزاً للتطهير والنظافة الداخليّة.

دعا القدّيس يوحنّا المعمدان إلى معمودية التوبة، التي كانت علامة على تغيير في سلوك المعتمد، وإشارة إلى انتهاجه طريقاً جديداً، بما يرضي الله ويتناسب مع الوصايا الإلهيّة. هل كان المعمدان ليدعو إلى معموديّة الماء هذه لو كانت هذه الممارسة غير معروفة وغير مألوفة عند معاصريه؟ جاء المسيح واقتبل معموديّة يوحنّا، ليعلّمنا "أن نتمّ كلّ برّ" (متى٣/١٥). وطلب من تلاميذه أن يعمّدوا الذين يبشرّونهم باسم الآب والابن والروح القدس (متى٢٨/ ١٩).

لم تبقَ المعمودية بالماء مجرّد علامة، بل صارت، في المسيح، ولادةً روحيّة جديدة، بنوّة إلهيّة للمعتمد، غفراناً للخطايا، لبوساً لعدم الفساد، إلخ. لم تعد رمزاً أو صورة لمدلول أعمق، بل فعلاً حقيقيّاً يحمل نعماً إلهيّة. بكلام آخر، تبنّت المسيحيّة ممارسة مألوفة، وأعطتها مضموناً جديداً بالكليّة، ورتّبت طقساً خاصّاً لإتمامها، بما يتناسب والمضمون الإيماني الجديد.

وكذلك الأمر في أمور عديدة أخرى.

يحاول بعضهم التشكيك بالمسيحيّة بحجّة تبنّيها طقوساً وممارسات، موجودة قبلها، وتالياً، ليست من اختراعها. حجّتهم في ذلك أنّها أخذت عما قبلها. وكأنّ أصالة الأمر باختراعه فقط!